
المؤتمر الدولي حول:
دور الدراسات الإسلامية في المجتمع العولمي
15-17 محرم 1432 هـ الموافق 21-23 ديسمبر 2010 م
www.cis.psu.ac.th/rispgso

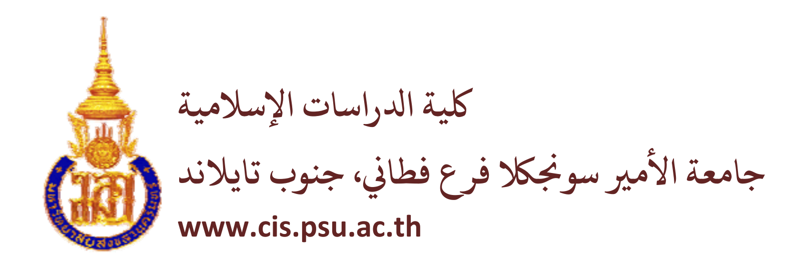
الدراسات الإسلامية رؤى وآفاق

إعداد:

عمر عبيد حسنه

مدير إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – قطر


كلية الدراسات الإسلامية
جامعة الأمير سونجكلا فرع فطاني، جنوب تايلاند
www.cis.psu.ac.th

بسم الله الرحمن الرحيم

الدراسات الإسلامية رؤى وآفاق*

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله، ﴿**ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلأمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءايَـٰتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ**﴾ (الجمعة:2)، الذي جعل الدراسة والعلم والمعرفة مفتاح أحكام الدين، وسبيل التدين الصحيح، وسيلة التنمية المستدامة، وسلم الترقي الحضاري وتشكيل الإنسان الصالح المصلح، وبناء المجتمع، وإقامة العمران، وتحقيق الشهود الحضاري، يقول تعالى: ﴿**وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى ٱلنَّاسِ**﴾ (البقرة:143).

والصلاة والسلام على معلم الناس الخير، النبي القدوة، الذي شكل أمته المسلمة من خلال كتاب، وانطلق بها من خلال مسجد؛ فالمعرفة وأخلاق المعرفة وضبط أهدافها وتوجيه مسارها هو النسق الحضاري المميز للحضارة الإسلامية، وكان السبيل إلى ذلك كسب العلم وتحصيل المعرفة وتزكية النفس، قال ﷺ: «**إِنَّ اللَّـهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا وَلا مُتَعَنِّتًا وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا**» (أخرجه مسلم).

لذلك فمحاولات إعادة البعث والإحياء والتجديد والنهوض وتحقيق الوراثة

---

* **ورقة مقدمة إلى المؤتمر الدولي حول: دور الدراسات الإسلامية في المجتمع العولمي، 15-17 محرم 1432هـ الموافق: 21-23 ديسمبر 2010م، تنظمه: كلية الدراسات الإسلامية، جامعة الأمير سونجكلا – فطاني بتايلاند**

الحضارية والتدين السليم ومعاودة إخراج الأمة، الشاهدة على الناس، لا سبيل له إلا سبيل العلم والمعرفة والتخصص في شعب العلوم والمعرفة المتعددة، فالخير كل الخير في عالم ومتعلم، ولا خير فيما سواهما، يقول عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه: «اغد عالماً أو متعلماً، ولا خير فيما سواهما».

الحضور الكرام:

يطيب لي بادئ ذي بدء أن أتقدم بالشكر الجزيل للقائمين على أمر المؤتمر، لثقتهم ودعوتهم للمشاركة، وأن أُحَيِّيَ الإخوة المرابطين في هذا الثغر العظيم، الذي يمثل الرباط المتقدم لنشر رسالة الإسلام السمحة في هذه البلاد العظيمة، في محاولته الدائبة لإلحاق الرحمة بالعالمين، حيث الغاية الكبرى والتي من أجلها جاء الإسلام: إلحاق الرحمة بالعالمين، يقول تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ (الأنبياء:107).

فالغاية من النبوة وورثتها من الجامعات والمعاهد والمدارس والمساجد وجميع المؤسسات التربوية والتعليمية إلحاق الرحمة بالناس، كل الناس؛ والرحمةُ هي سلوكٌ إنساني، يعتبر من أعلى أنواع السلوك البشري وأرقى درجاته؛ فالله سبحانه وتعالى في عقيدة الإسلام هو الرحمن الرحيم.

مرة أخرى يطيب لي أن أُحيي هذه المؤسسة وهذا الرباط المتقدم، الذي يضطلع بأمانة نشر الإسلام بوسطيةٍ وسماحة واعتدال، بعيداً عن التعصب والغلو والإكراه.

والأمر الآخر الذي أريد الإشادة به وتأكيد لفت النظر إليه: الدعوة إلى مثل هذا المؤتمر، الذي يمثل ويأمل بتحقيق التقويم والمراجعة الكاملة والمطلوبة لدور المؤسسات الإسلامية في حقبة العولمة؛ ولئن كانت المراجعات والمشاورات والمثاقفات والمناصحات مطلوبة دائماً لتقويم الإنتاج واكتشاف مواطن الخلل وبيان أسباب التقصير ومواطن القصور وتسديد المسار فإن

القضية اليوم أشد حاجة وأكثر إلحاحاً، بعد هذه المتغيرات السريعة التي تجتاح العالم، وبعد أن طويت المسافات وأزيلت الحدود والسدود في تُوجّهٍ شامل صوب عالم إعلامي واقتصادي واجتماعي وتعليمي واحد، تحاول فيه الدول الأقوى فرض هيمنتها وثقافتها وبضاعتها وعاداتها ونمط حياتها على الآخرين، حيث يُمارس الاغتصاب السياسي والثقافي والتربوي والتعليمي في محاولة لنسخ ثقافات الأمم والحضارات وإلغاء الهويات الوطنية وتحويل العالم إلى أسواق وسواعد وزبائن وأتباع للأقوى.

الإخوة الحضور:

قد يكون من المفيدِ في هذه الورقة والأفضلِ أن تكون لنا وقفات، أو ملامح ومعالم، أو رؤى وآفاق، أو قضايا نطرحها للتأمل والتفكير وإثارة الهمّ الباعث للهمة، ومن ثم الانتقال من مرحلة رد الفعل والتلقي إلى إحياء ثقافة الفعل والمشاركة.

- القضية الأولى: أبعاد العملية التعليمية:

إن العملية التعليمية والتربوية بكل آفاقها وأبعادها هي عمليةٌ دينامية متطورة متجددة مستمرة، ذات فضاء واسع يصعب إدراك غوره أو بلوغ حدوده، وهي ملفٌ مفتوح، قابلة للنظر والتجديد، وأن الجمود والتقليد والتقديس لطرائقها وأدواتها يعني التخلف والاغتراب والخروج من إطار الزمان والمكان والعيش في جُزر منعزلة تعيش أحلام اليقظة؛ ذلك أن تطور المجتمعات واختلاف المشكلات وتسارع النوازل والمستجدات لا بد أن يستوعب وبالتالي أن ينعكس بشكل أو بآخر على الأدوات والوسائل والسياسات التربوية والتعليمية، وإلا فكيف يستطيع التعليم أن يُعدّ المتعلِم لمجتمع يجهل أبعاده ولا يمتلك أدوات ومهارات التعامل معه؟!

- **القضية الثانية: الإسلام يرسي دعائم العالمية الأولى:**

إن الإسلام سبق إلى بناء العالمية، بل لعلنا نقول: إن الإسلام هو الذي أرسى معالم العالمية الأولى في الوقت الذي كانت أبعد من الحلم، بسبب القيود والسدود والمسافات والفوارق الجغرافية والثقافية، وأول من دعا إلى تشكيل المواطن العالمي في أمة الإسلام، والأمة غير الدولة: ﴿**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ (الحجرات:10).

فلقد جاء خطاب الإسلام للناس جميعاً: ﴿**قُلْ يٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾ (الأعراف:158)، ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَـٰكَ إِلاَّ كَافَّةً لّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً**﴾ (سبأ:28)، وفي ضوء ذلك اعتبر بعض العلماء والمفسرين أن العالم كله يعتبر أمة سيدنا محمد ﷺ سواءً في ذلك أمة الإجابة، من آمن به واتبع هداه، أو أمة الدعوة، الذين ما يزالون محل الدعوة ونشر الإسلام؛ والسعي لإلحاق الرحمة بهم.

كما أكد الإسلام، كما تعلمون، أن البشرية منحدرة من أصل واحد، وأن الفوارق بكل أشكالها ليست سبيلاً للصراع والمواجهة والتناحر وإنما للتعايش والتعاون والتكامل والتكافل، يقول تعالى: ﴿**يأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ**﴾ (الحجرات:13).

وعالمية الإسلام تُشكِّل مجتمعاً مفتوحاً لكل الناس، لذلك فهو بريء بطبيعة خطابه وتعاليمه من التعصب والإقصاء والإلغاء والإكراه، شعاره قول الله تعالى: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِى ٱلدّينِ**﴾ (البقرة:256).

لذلك جاءت حضارته إنسانية، شاركت فيها كل الأمم والشعوب والألوان، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.

من ذلك نقول: إن المسلم بالدرجة الأولى والمؤسسات الإسلامية، بكل تخصصاتها واهتماماتها، تمتلك رصيداً حضارياً عالمياً وخطاباً عالمياً ومعايير عالمية تجعله مؤهلاً للتعامل مع حقبة العولمة بأبجديات واضحة وغايات محددة

ووسائل مشروعة.

– القضية الثالثة: حقبة العولمة:

يمكن القول، إلى حد بعيد: إن أمر «العولمة»، وأهدافها، بشكل عام، لم يعد خافياً، ولا غامضاً، حتى يحتاج إلى الكثير من التجلية والتوضيح، فما من أحد تقريباً، يتوفر على قدر من الثقافة، أو الدراية، أو يمتلك، حتى ولو الحد الأدنى من المعرفة والرؤية، إلا ويعيش شيئاً من أشياء «العولمة»، أو قدراً من أقدارها، من خلال التعامل مع الواقع، وما تحمله وتمارسه وسائل الإعلام، التي لم يعد ينجو منها أحد، من التشكيل أو التضليل الثقافي، والترويج الإعلامي، والتنميط الاستهلاكي، وتوجيه الأخبار السياسية، وتسويغ الفعل العسكري، ورسم نهج التطورات الاقتصادية، وممارسة الإغراق الاقتصادي، حيث إنه يبصر بعض تجلياتها، أو يعاني من بعض آثارها، إلى درجة تكاد تسمح للمشتغلين بتحقيب التاريخ، أو بتحقيب العصور والأزمان، التي تتمتع بملامح وصفات وخصائص متميزة نسبياً، أن يطلقوا على المرحلة التي يعيشها العالم اليوم، من أقصاه إلى أقصاه، مصطلح: «حقبة العولمة»، سواء في ذلك، الذي ما يزال يعيش إرهاصاتها ونذرها الأولى، أو الذي دخل في جوفها، طوعاً أو كرهاً، وبدأت تظهر له وعليه بعض آثارها الخطيرة، واجتياحاتها السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والعسكرية، وعلى الأخص إذا لم يمتلك العدة الكافية للتعامل معها.

– القضية الرابعة: العولمة نازلة العصر:

فإذا أصبحت «العولمة» واقعاً، أو نازلة من نوازل العصر الإلكتروني، فإن ذلك يقتضي إدامة التفكير، في أبعادها، والتعرف إلى دوافعها، وأسبابها، والأهداف التي ترمي إليها، ومن ثم القيام بعملية مقارنة، بين الشعارات التي

تطرحها، والممارسة التي تقوم بها، ليستطيع المرء في ضوء ذلك تحديد موقعه فيها، واكتشاف حدود فعله في مجالاتها، وآلية التعامل معها، تجنباً لسلبياتها، واغتناماً لمعطياتها، أو التقاطاً لفرصها.

وقد يكون من الأبجديات المنطقية، أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، كما يقال، وبالتالي، فإننا لا نستطيع أن نتعامل مع حقبة «العولمة» ما لم ندرك أبعادها، ونحيط بعلمها، ونقوّم معطياتها، ونرصد آثارها، على أكثر من مستوى، وإن كانت في عمومها، تتمركز، أو تتمحور، حول البعد الاقتصادي، أو الدافع الاقتصادي، لدرجة قد لا يبصر بعض الباحثين، من «العولمة»، إلا هذا البعد، ويعتبر سائر التجليات، أو الآثار الأخرى لا تخرج عن كونها تمظهراً له.

وقد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى المفهوم المبسط لمصطلح «العولمة»، الذي يعني: إزالة الحدود والقيود الجغرافية، والسياسية، والثقافية، والحمائية، أمام الانتقال الحر للسلع، والخدمات، والمعلومات، والعادات.

وفي تقديرنا أن الإحاطة بعلمها، وإدراك أبعادها، هو المدخل الأساس والسليم لكيفية التعامل معها - كما أسلفنا - وبذلك تكون المواجهة أو الحوار أو المفاكرة عن علم، والقبول عن علم، فالإنسان عدو ما يجهل، والله تعالى يقول: ﴿**وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾ (فاطر:14)، ويقول: ﴿**بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ**...﴾ (يونس:39).

- القضية الخامسة: أهمية استيعاب العولمة:

إن الأمر الذي نود تأكيده مرة أخرى أن الإسلام بقيمه الإنسانية أو تجربته الحضارية التاريخية مؤهل لاستيعاب العولمة، بما يمتلك من رؤية واضحة للتعامل معها، كما يمتلك المعيار الصارم والدقيق لكيفية الأخذ منها والرد عليها.

والمؤسسات الإسلامية، وفي مقدمتها الجامعات والمعاهد والمدارس والمساجد ومراكز الدراسات، منوط بها النفرة للفقه الميداني بواقع العولمة، وتحديد الجوانب الإيجابية، وكيفية التعامل معها، وبيان الجوانب السلبية وكيفية الحماية منها، فالعولمة ليست شراً مطلقاً بالتأكيد، وليست خيراً مطلقاً بالعموم، والمطروح: كيف يمكن أن نفيد من فرصها المتاحة في مجال الإعلام، وتسخير الفضاء، وتسيير المواصلات، وطي المسافات، واختزال الزمان والمكان، وامتلاك القدرة على الوصول، من خلال ما أتاحته وسائل العولمة، بدعوتنا إلى العالم بشكل جاد ملائم ومقنع، بحيث نعلم كيف نخاطب الناس بخطاب يطابق مقتضى الحال، وكيف يمكن أن نبصر تحدياتها وانكساراتها فنحولها إلى استفزاز يجمع الطاقة، ويثير الفاعلية، ويبعث الهمة، ويقدم البديل.

- القضية السادسة: إحياء الفروض الكفائية وإعادة تشكيل العقل:

إن الاستعداد والإعداد للتعامل مع حقبة العولمة يتطلب التفكير في إحياء الفروض الكفائية، التي تقتضي توفير التخصصات في شعب المعرفة جميعاً، وإعادة تشكيل العقل المسلم بحواس سليمة من التخصصات المتنوعة في حقول المعرفة كلها، واعتبار ذلك من تكاليف الدين، ومن قبل ذلك كله بناء المرجعية الشرعية التي تشكل الرؤية والبوصلة والدليل لقراءة الحياة وكيفية التعامل معها، وتبصِّرنا بالآخر وكيفية التعامل معه.

ولعلنا نقول هنا: إن من الأهمية بمكان الإدراك الكامل لضرورة فقه العصر وامتلاك أدواته وعلومه ووسائله، وأهمية أن تتخلص مؤسساتنا الإسلامية من غربة الزمان، ذلك أن الكثير منها ما يزال يعيش في جزر معزولة عن الحياة، ويعيش على إنتاج عقلي وفقهي وفكري لعصر قديم، وهي ما تزال تقدس الوسائل التعليمية والرؤى التعليمية والاجتهادات التربوية وقد تغير العالم.

وبالمقابل لا بد من أن نتصالح من أنفسنا، ذلك أنه يوجد إلى جانب تلك المؤسسات القديمة والتقليدية، التي تعاني من غربة الزمان، مؤسسات تدعي الحداثة والمعاصرة، لا تمتلك المرجعية الشرعية الكاملة ولا تبصر المعادلة الاجتماعية للأمة وتستورد المنهج والكتاب والمعلم وطرز البناء والسياسات التعليمية، فتعاني من غربة المكان، الأمر الذي أدى إلى الانشطار الثقافي، الذي لم يأت بخير.

وما لم تتحقق المؤسسات الإسلامية بفهم العصر والواقع، إلى جانب فقه النص، فسوف تبقى عقيمة عن العطاء والتوليد والتجديد المأمول، والمطلوب شرعاً «**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**» (أخرجه أبو داود في الملاحم)؛ وما لم تتحقق المؤسسات العصرية بالمرجعية الشرعية التي تشكل الوجهة والهوية والمعيار فسوف تبقى عاجزة وغريبة عن روح الأمة.

ويكاد يكون المطلوب اليوم أن نفقه النص الشرعي ونفهم العصر، الذي يتطلب فهمه التحقق بمجموعة علوم وتخصصات، حتى نتمكن من تنزيل النص على حياة الناس، حسب استطاعتهم، وبذلك نتمكن من تقويم الواقع بقيم الدين، فنكتشف الخلل لنصلحه، ونتمكن من معرفة واقع الناس واستطاعاتهم ومشكلاتهم، فنفقه كيف ننزل قيم الإسلام عليه بقدر الإمكان.

- القضية السابعة: الانتقال من إثبات النص إلى إعماله:

ولا شك أن الميراث العلمي والثقافي المتوفر في تاريخ المسلمين يعتبر مفخرة إنسانية عظيمة ورصيداً حضارياً كبيراً، لكننا نقول: لقد قضينا ردحاً طويلاً وعطاءً متميزاً في إثبات صحة النص في الكتاب والسنة؛ والجهود العلمية التي كانت في هذا المجال تؤكد لنا علم اليقين أن النص وصل إلينا

سليماً من كل إصابة، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:9)، وهذا يمثل القاعدة الأساس ونصف الطريق إلى صناعة الحياة الإسلامية والإنسانية، ويبقى المطلوب التفكير والتفقه بكيفية إعمال النص في حياة الناس، بحسب استطاعتهم، ذلك أن عطاء المؤسسات الإسلامية في هذا المجال يكاد يكون ضئيلاً جداً.

- القضية الثامنة: بين ذهنية الاستحالة وذهنية الاستسهال:

إن عالم المسلمين تجاه العولمة ينقسم إلى قسمين:

قسم يعاني من حالة الانبهار التي تؤدي إلى الشلل والعجز تجاه معطيات العولمة ووسائلها، فيعيش حالة السقوط والاستحالة.

وقسم آخر يعيش أحلام اليقظة ويظن أن المغالبة الحضارية يمكن أن تتم بالنوايا الطيبة والخطب الرنانة وارتفاع الأصوات والافتخار بالماضي وانتظار السنن الخارقة، فيقع في ذهنية الاستسهال؛ وكلا القسمين يبقى خارج الحياة، حيث لا بد من توليد وبناء قسم ثالث أو قوة ثالثة تستطيع أن تدرس وتتعلم وتعمل على استيعاب العولمة، ومن ثم امتلاك القدرة على المشاركة فيها، حتى نتمكن من الوصول إلى مرحلة ترشيدها واغتنام فرصها لتقديم قيم الإسلام كقيم منقذة للبشرية.

ولعلنا نقول: إن العولمة لم تعد حكراً على منطقة جغرافية أو أمة أو مجال، وإنما هي موطن ومجال للاشتراك الإنساني، وإن الكثير من المبتعثين من العالم الإسلامي إلى مؤسسات العولمة في الغرب والمشاركين بصناعتها يمكن أن يُشكلوا جسوراً وحلولاً وطلائع متقدمة للارتقاء بعالمهم الإسلامي وأمتهم إلى الصفوف المتقدمة، حيث لا بد من النظر إلى العولمة واستيعاب أبعادها واكتشاف إصاباتها، ومن ثم تحديد الموقع المناسب للتعاطي معها، والإفادة منها لديننا ودنيانا، وبذلك نحقق موقع الشريك والتلميذ طالب العلم وليس

موضع الزبون المستهلك.

لذلك لا بد من التنبه إلى دور المثقفين والمبتعثين، وإدراك أهمية التبادل الثقافي، ومحاولة إحياء هذا الدور الرشيد من قبل المؤسسات الإسلامية واستقدام المبتعثين كخبراء وأساتذة زائرين، وإرسال البعثات العلمية للإطلاع والمعرفة عن قرب، وإنشاء مراكز دراسات وبحوث تابعة للمؤسسات الإسلامية قادرة على حسن قراءة المشكلات وتقديم الحلول والمقترحات لكيفية التعامل معها، الأمر الذي قد تعجز عنه الجامعات بمناهجها الأكاديمية.

- القضية التاسعة: قوة الثقافة لا ثقافة القوة:

ولا بد من وقفة بسيطة عند صمود الثقافة الذاتية وحمايتها لكيان الأمة، فالتاريخ في حقبة «العولمة» يُخشى أن يعيد نفسه، فيوقع الكثير من الضحايا، ويستنزف الكثير من التضحيات، قبل السقوط، والعبرة دائماً بالعواقب والمآلات، وليس بالنتائج السريعة وبالتاريخ القريب.

فإذا صح، أن المغلوب مولع دائماً بتقليد الغالب، ومقاربة أشيائه، والافتتان بقوته، فإن الصحيح أيضاً، أو الأكثر صحة، أن ثقافة المغلوب التي اكتسبها وآمن بها عن اختيار وقناعة وتجربة حضارية هي أقوى، في كثير من الأحيان، من جند الغالب وسواعده، وأشيائه.. وليس عجباً أن نقول، بعكس المقولة الشائعة: بأن ثقافة قوة الغالب، من حيث النتائج القريبة، سوف تخضع وتفتن، وتغري المغلوب، وإن ثقافة المغلوب، القوية بذاتها، سوف تكون على المدى البعيد كفيلة بهضم قوة الغالب، وتحويله من عدو لدود إلى صديق ودود، إلى مؤمن بهذه الثقافة، يدافع عنها، وعلى الأخص عندما تكون هذه الثقافة بعيدة عن التعصب، والانغلاق، والإكراه، وتكون ثمرة لبناء المشترك الإنساني، بجميع أطيافه.

والمجال قد لا يتسع للشواهد التاريخية في هذا، فالتتار الذين اجتاحوا بغداد كالإعصار، الذين استهدفوا كيان الأمة، وعقلها في الوقت نفسه، قتلوا الآلاف، وحرقوا الكتب، مخازن الثقافة، وألقوا ما ألقوا منها في دجلة حتى أسود ماؤه من مدادها، مالبثوا أن تحولوا إلى مؤمنين بالثقافة الإسلامية، مدافعين عنها، ممتدين بها.

والصليبيون، الذين جاءوا بجيوش جرارة، وثقافات مغايرة، واجتاحوا الشرق الإسلامي، وفرضوا ثقافتهم بقوة الحراب لما يقارب القرنين تقريباً، على ثمانية أجيال، مع ذلك انتهوا إلى لا شيء، وعادت الأمة إلى هويتها وثقافتها، وتجاوزت ثقافة القوة والقهر، إلى قوة الثقافة وحرية الاختيار.

ولا أعتقد أن أمر الغزاة الجدد سوف يختلف عن مصير أجدادهم، فالأقوياء وأصحاب الصلف، الدكتاتوريون، والعسكريون، الذين حاولوا فرض رؤاهم بالحديد والنار تاريخياً، أصبحوا أثراً بعد عين، في مقابر التاريخ، وهم أشبه بالتماثيل والنصب الخاوية، التي حاولت أن تنزع إلى مستوى الآلهة، ولكنها لم ترق إلى مصافها، مهما ادعي لها من العصمة.

والثقافة البانية هي الممتدة، والأمم أقوى من الدول، والشعوب أقوى من الحكومات، والعقائد أبقى من السياسات، وقوة الثقافة أمكن من ثقافة القوة، الهشة التي تسقط سريعاً، بسقوط القوة؛ فالثقافة تبقى هي الملاذ، والحصن الأخير، وسبيل الممانعة الحضارية، والإنسان بثقافته، وقيمه، وأفكاره، وليس بعضلاته وأشيائه، وقدرته على العودة إلى حياة التوحش والافتراس، مهما صنع من الذرائع، وقدم من المسوغات، ووضع من الفلسفات.

وهذه من أولى مهمات الدراسات الإسلامية بكل مؤسساتها.

ولعل الشواهد المعاصرة أيضاً، إلى جانب ما ذكرناه من التاريخ، تُعتبر من الأدلة القريبة والملموسة على أن عقيدة وثقافة وحضارة المغلوب أقوى من سواعد وقوة وهيمنة الغالب، فكثير من عمليات الابتعاث إلى الغرب والشرق على سواء، من الطلبة الذين عاشوا في جوف حضارة الغالب وثقافته عادوا

أكثر وعياً وأشد تمسكاً وصلابة في عقيدتهم، وقادوا الكثير من عمليات التغيير والتنوير، وإن كان أريد لهم غير ذلك.

- **القضية العاشرة: أهمية استصحاب الماضي لاستشراف المستقبل:**

ولعل القضية الأهم أن المؤسسات التعليمية الإسلامية تغرق في الماضي بشكل عام، وتُعاود إنتاج القديم، شرحاً وبياناً واختصاراً، وهذا لا يعني الدعوة إلى تجاوز الماضي وإلغائه بكل عطائه وتجاربه وعبره، ذلك أن الدعوة إلى إلغاء الماضي حماقة، فمَنْ لا ماضيَ له لا ذاكرة له، ولا عبرة له، ولا إمكانية له للعبور السليم للحاضر والمستقبل، وإنما يعني أن قيمة هذا الماضي إنما تكون بمقدار ما يؤهل لتصويب الحاضر ويحمل على تبصّر المستقبل، بحيث يكون المطلوب استصحاب الماضي لفهم الحاضر وإبصار المستقبل، وحسن الإعداد له.

وقد تكون الإشكالية متولدة من الخلط والالتباس في مصطلح الغيب نفسه، بين الغيب بمعنى الماضي ﴿**ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْغَيْبِ**﴾ (آل عمران:44)؛ والغيب بمعنى الغائب عن الحضور والمشاهدة؛ والغيب بمعنى يوم القيامة، الالتباس بين مصطلح الغيب والمستقبل، الذي أصبح علماً له أدواته ومناهجه واستطلاعاته واستشرافه، وأهمية ذلك في الإعداد له.

إن الإحجام من المؤسسات والدراسات الإسلامية عن استشراف المستقبل والإعداد له، والاستغراق في الماضي حمل الكثير من الابتلاءات للمسلمين ولم تستطع المؤسسات الإسلامية بعد حل هذه المعادلة الصعبة.

- **القضية الحادية عشرة: فقه المقاصد والسير أمام المجتمع:**

مما لا شك فيه أن القيم الإسلامية تشكل الرؤية للحياة والكون والإنسان، والدليل للتعامل معهم، والبوصلة التي تسبق الخطوة، وتحدد الوجهة، والأصل أن ترسم القيم الإسلامية طريق السلامة للإنسان في الدنيا

والآخرة، وتبين له الحاضر وتقوّمه، وتسير أمام المجتمع تستشرف الغد، لكنها في الوقت نفسه تبقى معنية بمعالجة مشكلات الحاضر وإصاباته، ولعل الكثير من الآيات إنما نزلت لتعالج مشكلات وقعت للمسلمين، وكأن الفعل البشري والواقع الأرضي يستدعي حكم السماء وما أسباب النزول لكثير من الآيات إلا دليل ذلك.

ولذلك نقول: إن الرؤية الإسلامية والأحكام الشرعية هي في جملتها أحكام مقاصد وأهداف، وإنها مع ذلك وبقدر بسيط تعالج واقعاً مصاباً فتكون أحكام مخارج لحالات معينة، تسير خلف المجتمع، لكنها في حقيقة الأمر وعلى العموم هي أحكام مقاصد ومستقبليات.

- القضية الأخيرة: دينامية العملية التربوية:

إن الذي نريد له أن يكون واضحاً ونعاود فيه القول: إن العملية التعليمية والتربوية، بكل أبعادها واستحقاقاتها ومراحلها العمرية، هي عملية «دينامية» مستمرة ذات فضاء واسع يصعب إدراك غوره أو بلوغ حدوده، وملف مفتوح دائماً، سواء في ذلك المراحل العمرية للإنسان، محل التربية (سيكولوجية النمو)، أو تطور المجتمعات واختلاف المشكلات وتسارع المستجدات، التي لا بد أن تنعكس بشكل أو بآخر على الأدوات والوسائل التربوية والسياسات التعليمية.

ذلك أن التربية هي الوطن بكل آفاقه واستحقاقاته، وهي الهوية بكل أبعادها وقسماتها، وهي الرحم التي تتشكل فيه سمات الشخصية، وتؤصل فيه الخصائص والصفات الإنسانية، وتزرع في حقله بذور مستقبل حياة الإنسان السلوكية، ويشكل المرجعية التي تحكم مسار جميع النشاطات البشرية في المجالات المختلفة. فالتربية هي كيمياء الحياة وروحها المتدفقة، لذلك كلما زاد الإنفاق عليها والاهتمام بها استدعت المزيد.

والتربية لا يسعها زمن ولا كتاب ولا مكان، ولعلنا نقول: إن خلود القرآن،

كتاب الرسالة الخاتمة، ومصدر التربية الإسلامية، وقدرته على العطاء والإنتاج وتوليد الأحكام ومد الرؤية في كل زمان ومكان مؤشر، من بعض الوجوه، على طبيعة العملية التربوية، التي لا تقف عند أو عند عمر أو عند إشكالية.

فهي كالماء يحتاجه الصغير والكبير والسليم والمريض، لذلك فلا شك أن مهمة الابتعاث النبوي كله تمحورت حول التربية وبناء الإنسان الصالح المصلح وأن مشروعية العبادات والتكليف بأدائها اليومي والشهري والسنوي والعمري إنما جاءت كوسائل للوصول إلى بناء هذا الإنسان.. فمهمة النبوة هي التعليم والتزكية ورفع الإصر والأغلال والتشريع لضمان ديمومة دوافع الخير على نوازع الشر، والعمل على تزكية النفس، لأنه طريق النجاح والفوز وبناء المجتمع الحضاري الصالح في الدنيا والفلاح بالآخرة: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ (الشمس:9- 10).

فالتربية تزكية للنفس، وحيلولة دون تدسيتها وإفسادها بالمعاصي؛ وكتاب الله منجم تربوي ثري؛ وسيرة النبي ﷺ العملية ميادين تدريب وتطبيق؛ وجيل خير القرون - بعد توقف الوحي- امتداد بهذا العطاء؛ واستمرار وجود مقاربات ونماذج تتحلى بهذه الصفات التربوية وتجليها في حياتها دليل على هذا العطاء، الذي لا ينفد، والقدرة على الاستجابة في كل زمان ومكان.

وبعد:

فالأمل كبير في القائمين على أمر الجامعات والمعاهد والدراسات الإسلامية، وأن يمتدوا بعقد مثل هذه المؤتمرات القاصدة، وأن يمارسوا عملية التجديد والتطوير في ضوء تطور المجتمعات والمتغيرات المتسارعة، ويعاودوا اكتشاف واختبار جدوى وسائلهم، ومدى فاعلية الدور المنوط بهم في هذه الحقبة من الانفتاح والتواصل العالمي، وأن يعيدوا النظر بمناهجهم وسياساتهم

ووسائلهم التعليمية، وأن يُخضعوا أعمالهم للتقويم والنقد والمراجعة والمدارسة والمشاورة، والإفادة من تجارب (الآخر)، فالحكمة ضالة المؤمن، وبذلك يكونون في مستوى إسلامهم وعصرهم.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

المحرم 1432هـ- ديسمبر 2010م